وفيق يوسف

مذكّرات ثقافة مهزومة

الثقافة العربية في جبهة الصراع الحضاري

منشورات



تونس 1994

الطليعة العربية في تونس
في سبيل مجتمع عربي موحّد حُرّ وديمقراطي

مذكرات ثقافة مهزومة

وفيق يوسف
1993

في أزمنة الإنهيارات الكارثية التي تعيشها أمة ما، كحال المرحلة التي نتفيا ظلالها الفستقيّة اليوم، تغدو مفهومة -ومبررّة إلى حد ما- حالة الإنكفاء العام والنكوص والإنغلاق على الذات والتقوقع والياس التراجيدي..

وغيرها من الظواهر التي تترجم مدى «الزلزلة» التي تعرّض لها عقل كان حتى الأمس القريب يؤمن بحقائق ثابتة ترقى إلى مرتبة المطلقات وترتدي حلّة شبه قدسية لايداخلها الشك من أمامها ولا من ورائها! وفجأة ينهار البناء الكبير دفعة واحدة، وتقف الأمة عزلاء عارية في مهب التاريخ والجغرافيا، وإذا بعقل هذه الأمة أعجز مايكون عن الوصول إلى لحظة التوازن والإتزان الضرورية، فيغرق في حالة اليأس العام والشامل! إذ أن حجم الأخطاء التي ارتكبت لابد أن يكون هائلاً كي يكون الحصاد كارثياً ومهولاً إلى هذه الدرجة!

وفي الواقع فإن حالة اليأس الراهنة مفهومة، وتكاد تكون مبررّة. وإن كانت تفتقر إلى العقلانية، ولاتنال استحقاقها الكامل إلا بارتقائها إلى الموقف النقدي العقلاني الذي يعيد للذات حصانتها من جديد ويحميها من الإنهيارات المتلاحقة، ويقفز بها من لحظة الشعور الآنية والوجدانية المفرطة إلى لحظة العقل في صيغته العقلانية، وهي اللحظة التي يكاد يقف عندها اليوم قطاع بارز من المثقفين العرب الذي يعملون بجدية على إعادة مراجعة الحقبة الماضية كلها وتقديم قراءة جديدة لها، تكشف عن بذور الإنهيار التي كنا نتغافل عنها سابقاً.

إنها ظاهرة يمكن أن تبشّر بالخير، وبافتتاح أفق جديد أمام العقل المهزوم، ذلك أنه بدون إعادة قراءة تلك المرحلة التي توشك اليوم على الغياب، بدون مراجعة شاملة لكامل المسار الذي عبرنا به تلك المرحلة، بدون الرؤية الواضحة للماضي الذابل، لن يمكن الحديث عن مستقبل مفتوح على رحائب جديدة، ولن نصل بحال إلى لحظة أقل تشوّشاً وضبابية معرفية من تلك التي عُشناها في الماضي. ذلك أن ماسيكون مستقبلنا إنما يصنع اليوم! ومن هنا تتضح أهمية إعادة قراءة المرحلة الغابرة وتمثل واستيعاب دروسها كلها، ومن ثم تجاوزها لاحقاً إلى شكل أرقى من الفعالية المعرفية والحضارية الشاملة.

أسئلة الثقافة العربية اليوم:

إذن فقد جاءت لحظة العقل أخيراً، وبدأ هذا العقل باستعادة سلطته وحضوره بعد أن تم تغييبه طوال العقود الغابرة عن الساحة العربية كلها، وعن مستويات الحياة بجماعها! إنه الغائب الكبير الذي كان يحرص الجميع على إبقائه غائباً. وعندما نتحدث عن العقل فإن الحديث يقودنا إلى المثقف، وهو مايعنينا هنا، وإلى الثقافة، وهي موضوعنا الأساس.

فبعد كل ذلك الضجيج الذي ملأ الفضاء منذ منتصف هذا القرن وحتى اليوم، يبدو وكأن الزمن دار دورة طويلة ليعود ويتوقف عند لحظة القرن التاسع عشر، وعند سؤال ذلك القرن الحاسم: النهضة! ويمكن المجازفة بالإقرار بأن كامل وضعية الثقافة العربية اليوم، هواجسها وإنجازاتها وإحباطاتها وأسئلتها وأجوبتها، يمكن تكثيفها في سؤال سبق لرائد نهضوي هو «شكيب أرسلان» أن طرحه في أوائل هذا القرن وعنون به كتابه الأشهر: لماذا تخلّف المسلمون وتقدم الغرب؟!

وهكذا فإن أسئلة العقل العربي والثقافة العربية قلّما تغيّرت منذ بداية عصر النهضة العربية في منتصف القرن التاسع عشر وحتى اليوم! بل هي تطابقت في الأغلب الأعم، وإن تغيّرت صياغاتها ومفرداتها. إبتداء من السؤال الحضاري الشامل إلى بقيّة الأسئلة التي تتناسل منه تلقائياً وتباعاً: الحداثة، العلمانية، العقلانية، التراث والمعاصرة، المجتمع المدني، العلاقة بالآخر...

والحقيقة أنه منذ بداية اليقظة العربية، ومذ سجلّت المنطقة تلك النبضة النهضوية الهامة التي حركّت الزمن الراكد ورفعت من رنّة إيقاعه وغيّرت حساسية البشر وأججّت المنطقة العربية برمّتها على امتداد القرن العشرين برمّته. منذ ذلك الوقت والثقافة العربية ترفع راية المشروع النهضوي التحرري

العربي، الذي بدا وكأنه الرافعة التي سترفع المنطقة من ركودها التاريخي لتدخلها في قلب العصر وتنقل العربي من رد الفعل التاريخي، المَرَضي، المتشنّج، الخاسر أبداً، إلى درجة الفعل في الواقع والتاريخ.

رغم كل ذلك فقد فشل المشروع العربي وتم إلحاق هزيمة حضارية شاملة بالأمة العربية، تكاد تكون، أي الهزيمة، الأسوأ بين جميع الهزائم التي نزلت بها في تاريخها، لأنها تهدد بإنزال الأمة إلى موقع الجثة التي لاحول لها ولا قوة. وبدورها فقد فشلت الثقافة العربية في إنهاض مجتمعها وإخراجه من مأزقه، ويبدو فشلها الآن وكأنه سبب ونتيجة في آن معاً، للفشل العربي العام. ورغم أن المثقف كان على الدوام ضحية قمع عربي شامل ورهيب، ورغم أن النظام السياسي العربي كان يستشرس على الدوام لمواجهة العقل وكبح جماحه ومنع انطلاقته، إلا أن بذور العطب في المشروع الثقافي كانت جلية منذ البداية، وكان جسد الثقافة العربية محملاً بعناصر الإخفاق دوماً، ويبرز هذا الإخفاق في عناصر كثيرة ومتشعبة مثل: قصور مفهوم الزمن، ضبابية مفهوم العلاقة بالآخر، ضياع الذات والعجز عن استعادتها...

* قصور مفهوم الزمن:

عندما نقرّ بحقيقة أن أسئلة الثقافة العربية اليوم لم تتجاوز سؤال النهضة الذي طرحه مفكرو القرن الفائت (الطهطاوي، البستاني، اليازجي، الكواكبي، الأفغاني، عبده، عازوري، ...) فإن هذا يعني، أول مايعني، أن العرب لم تنجز شيئاً طيلة القرن العشرين، وأن زمننا الحضاري، بالمقارنة إلى الزمن الكوني العالمي، يتوقف عند لحظة القرن التاسع عشر، وبالكاد يدخل بوابة القرن العشرين، أو يقف عند عتبته منتظراً. وليس ثمة حاجة للقيام بعملية جرد لوضعية الثقافة العربية اليوم، برموزها ومنابرها، كي ندرك هذه الحقيقة التي تلخّص الخسارات العربية كلها على امتداد القرن العشرين.

وهكذا فإن الثقافة العربية في وضعية خاسرة، كغيرها من المستويات والبنى العربية، فقد خسرت العنصر الحاسم في أي مشروع: الزمن! الذي طار بعيداً عن قبضتها، فوصلت إلى ماتحت خط الفقر الثقافي، وبات عريها فاضحاً!

إن التعيين الأهم من تعيينات هذا القرن هو أن الغرب لم تحسم معركة واحدة من معاركها التي خاضتها، أو التي أجبرت على خوضها طوال هذا القرن، ومثالها الأبرز في الحقل الثقافي مسألة الحداثة التي لم تحسم حتى اليوم، حيث مازال إيقاع الزمن الدائري يفرض نفسه على العقل العربي مدوّخاً إياه، بحيث تجد في اللحظة ذاتها منابر وأصواتاً وكتباً وكتاباً تفصل بينها هوة زمنية مرعبة، وإذا كانت هذه الظاهرة في مجتمعات أخرى دليل عافية وتواصل في الذاكرة الجمعية، فإنها عندنا دليل جمود وضحالة فكرية وثقافية لا حد لها، لا شيء ينتهي، لا أحد يؤصل، لا أحد يواصل، وكأن هذه الأرض أرض انتظار فقط. وهكذا يستمر العقل العربي في دورانه في دوامة الخلخلة الزمنية المرعبة!

إن كل الثورة التي فجرّها طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي» تنبع من توقيتها المهم في عشرينات هذا القرن، وكذا الأمر بالنسبة لعلي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، إذ أن فكرة ما لاتأخذ قيمتها إلا من توقيتها مع زمن المجتمع، وإسهامها في عملية الحراك السياسي أو الثقافي أو الاجتماعي، وهذا مادفع «ابراهام لنكولن» الرئيس الأمريكي لاستقبال الروائية «هارييت بيتشر ستاو» بوصفها «مفجرّة الحرب الأهلية الأمريكية» بعد صدور روايتها الشهيرة «كوخ العم توم»، وهو ذاته مادفع نابليون بونابرت لأن يقول، في إحدى تجليات عظمته المضحكة: ليس بين الرائع والمضحك سوى خطوة واحدة، فلتفصل الأجيال القادمة في هذا!

إن الزمن لاينتظر أحداً، ففي الوقت الذي تنتشر فيه الثقافة الاستهلاكية الغربية كالجرب في جسد هذه الأمة، ويتم تعميمها بأشكال مختلفة وهائلة، من

سروال «الجينز» وحتى أفلام الفيديو. وفي الوقت الذي نعيش فيه سعار الاستهلاك، على الطريقة الأمريكية، بأكثر أشكاله فظاظة، وتخسر الأشياء قيمتها، وتغدو اللحظة الراهنة صاحبة القيمة المطلقة، وما إن تعبر حتى تفقد قيمتها واستحقاقها الكاملين، ويعجز العقل عن القبض عليها وإيقاف هروبها اللاهث...، في هذا الوقت فإن الثقافة العربية تمارس هروباً فظاً وبأشكال متعددة: إبتداء من العقل السلفي، الذي يفتّش في رماد الماضي عن أمجاد هاربة منسيّة، ويسعى لبعثها، ويرفعها كهوية جديدة في مواجهة الآخر المنتصر (الغرب الأوربي والأمريكي)، وحتى عقل التنوير الذي يعود إلى سؤال القرن التاسع عشر عاجزاً عن استنباط أسئلة جديدة أو الإجابة على ذلك السؤال (رغم مشروعيتّه الكبيرة). ومروراً بالعقول الإيديولوجية، بتياراتها المتعددة، والتي تعيش إفلاساً راهناً ومخيفاً لم تستطع بعد الإقتناع به، ومن ثم العمل على فهمه واستيعاب دورسه وتجاوزها.

وهكذا يجد العقل العربي ذاته أمام خيارات ضئيلة ومحدودة للغاية، فقد نتج عن عطب علاقته بالزمن أن وصل هذا العقل إلى لحظة ضبابية غائمة، لايستطيع معها أن يرى بوضوح أبداً، لا ماضيه الغارب ولا لحظته الراهنة ولا مستقبله القادم، والحال أن الضباب العقلي هو العدو الأكبر للوضوح والتنوير.

وهكذا فإن الدرس المر الذي تعلمناه متأخرين ودفعنا مقابله ثمناً باهظاً هو أن الزمن لاينتظر أحداً! والوقت الذي استغرقته الثقافة العربية في البحث عن فهم لإشكالية العجز، هذا الوقت كان يمكن اختصاره كثيراً لو تم التعامل مع تلك الإشكالية دون عقد.

إن إشكالية الزمن لا تزال واحدة من أدق وأعمق إشكاليات الحياة العربية المعاصرة، بحيث يمكن إرجاع الكثير من عناصر المأزق الحضاري العربي إلى عطب علاقته بالزمن. فمن الواضح تماماً أن ثمة فجوة كبيرة تفصل

بين الزمن العربي والعالمي، وهي فجوة تزيد هاويتها عن نصف قرن كامل، وتشكّل «هوّة حضارية» تتسع يوماً بعد يوم مع القفزات التقنية ومابعد التقنية العالية التي تقفزها المراكز المتقدمة على الأرض، بالتوافق مع ازدياد ركود الواقع العربي واستمرار دورانه حول ذاته في إيقاع بطيء يخلخل العقل والفكر، واستمرار عجزه عن الخروج من مأزقه اللانهائية إلا اللهم ليقع في مأزق أكبر منها. وهذه «الهوّة الحضارية» تترجم كل يوم وكل لحظة وفي كل مكان على الأرض العربية، ابتداء من أزمات السكن والمواصلات والمجارير.. والتي تجعل العقل عاجزاً عن الخروج من فخ متطلبّات الحياة اليومية البسيطة، إلى الأزمات الكبرى في البنى السياسية والإجتماعية والإقتصادية، وفي العقل الذي يدير هذه البنى.

* العلاقة بالآخر:

والآخر هنا ليس سوى الغرب المسيطر والمهيمن والذي لم يتوقف لحظة واحدة عن طرح التحديات بوجه العقل والثقافة العربيين. فمنذ بداية عصر النهضة ومثقف التنوير العربي يرى التخلف هنا والتقدم هناك، الإستبداد هنا والحرية هناك... وهكذا أمسك ذلك المثقف بمبضعه وبدأ بتشريح أمراض مجتمعه كما تظهر في مرآة الآخر، وكما تنعكس عن هذه المرآة، وراحت الثنائيات تتوالى: تقدم/تخلف، مكننة وتقنية/حرف يدوية، علم/لاهوت/، عقلانية/لاعقلانية، أصولية/معاصرة، تقليد/حداثة، ...، وقادت هذه الثنائيات العديدة إلى الفخ المنتظر: الإنبهار بالغرب، الإمتلاء بعقدة النقص تجاهه، ورفع عناصر المشروع الغربي إلى مرتبة الحلم المرتجى! وفي النتيجة لم يعد مثقف التنوير العربي يجد منفذاً أو خياراً خارج هذه الثنائيات التي أقحم نفسه فيها!

لقد قاد هذا الإنبهار بالغرب إلى موقف غاية في التناقض، ومذهل في القطاظة: وهو تحوّل الغرب إياه إلى الخصم والحكم والنموذج الأعلى معاً! ومنذ

تلك اللحظة والعقل العربي يتخبط في دوار مخيف، ومن يومها لم يعد قادراً على الوصول إلى لحظة وضوح، بل سادت الضبابية الفكرية والعقلية وتحولت إلى ممارسة وسلوك غاية في الضعف والتخبط والإضطراب!

ولا يمكن فهم هذه الوضعية الغريبة بدون العودة إلى القرن التاسع عشر، إلى ذلك الزمن الذي بدأت فيه أوربا باكتساح القارات الأربع الباقية على سطح المعمورة، ونجحت في ذلك إلى حد كبير، وراحت تتهاوى على قلاع المقاومة على امتداد المعمورة واحدة إثر أخرى، وعلى مستويات وأنماط شتى. ولم يكن أمام الشعوب والثقافات سوى التحصن خلف متراس ردّ الفعل السلبي، ولم تتمكن من تجاوزه إلى موقع الفعل الثقافي- الإقتصادي- السياسي- العسكري...، إذ أن التفوق الأوربي كان جلياً وكان أكبر من قدرة الشعوب على المواجهة، كما كان الإكتساح صاعقاً ومفاجئاً إلى الدرجة التي لم يكن يترك فيها للضحية فرصة التقاط الأنفاس.

لقد كان الغرب يبدأ دائماً بغزو عسكري مفاجئ، يحيل تماسك المجتمعات المغزوّة إلى حطام، ويفكك وحدتها ويفسخ لحمتها التاريخية. ثم يُلحق نصره العسكري بنهب إقتصادي وغزو ثقافي، ليصل إلى فرض نموذجه الكامل على شعوب ومجتمعات خاسرة، وهكذا تربعَ الغرب على عرش العالم وفرض نموذجه الحضاري على الجميع.

هذه باختصار شديد بانوراما القرنين التاسع عشر والعشرين، وهكذا كان السيناريو السائد عموماً، وإن اختلفت تفاصيله هنا أو هناك، وذلك على امتداد قارات بأكملها من غرب أفريقيا إلى الصين والهند وأمريكا اللاتينية، وفي المركز منها العرب.

وعندما كان يبدأ السيناريو المقابل، إذ تتحفز المجتمعات المهزومة وتتهيأ لصد هذا الغزو الذي يهددّها بما يصل أحياناً إلى درجة السحق والإبادة

الكاملين، وتستخرج قواها الكامنة لتبدأ في مواجهة الخطر، وتستنفر جميع أسلحتها للتحدي والصمود من جديد: ثقافاتها وتراثها وتقاليدها وعصبيتها الخاصة...، ومن جديد كانت النتيجة مخيبةً للآمال، إذ كان على هذه المجتمعات أن تتذوق طعم الهزيمة المرّ مجدداً، وأن تدرك أن أنماط الحياة التقليدية المستنبطة من القرون الغابرة قد سحقت وانحطمت إلى الأبد، وأن أواليات دفاعاتها قد أخفقت تماماً، وأنها أعجز من أن تواجه إله القوة الغربية الظافر والمسلّح بعناصر قوة وتقدم تسبق الآخرين بقرون كاملة. وجاء دور الثقافة لتبحث وتستقرئ وتحلّ وتستنتج الحلول، محاولة إخراج شعوبها من المغطس التاريخي الذي يهددّ بابتلاعها، وكان هذا هو الدور الذي رسمته الثقافة الغربية لنفسها على امتداد أكثر من قرن، فكيف لعبت هذا الدور؟

كان الوجه الأول من وجوه الغرب التي ارتطم بها مثقف النهضة العربية في القرن التاسع عشر، هو الوجه المشرق «المخصص» لشعوبه وليس «للتصدير» للآخرين، الوجه الذي يكثف حصيلة نضالات الشعوب الأوربية وثوراتها على امتداد قرون منذ بداية عصر النهضة والتنوير في أوربا ذاتها: الديمقراطية، حرية الفرد، مفهوم المواطن، المجتمع المدني، التقدم العلمي والصناعي الشامل...، وكانت هذه هي الصورة التي احتلّت أذهان المثقفين العرب الأوائل الذي احتكوا بالغرب سواء من خلال البعثات التي أرسلها «محمد علي باشا» إلى هناك، وكان من أبرز أفرادها «رفاعة الطهطاوي» (١٨٠١ - ١٨٧٣)، أو من خلال البعثات التبشيرية التي وفدت إلى المنطقة، وبدأت بتخريج دفعات من المثقفين المشبعين بالروح الغربية وعناصر الثقافة الغربية.

وهكذا ارتسمت صورة «معطرة» للغرب في ذهن المثقف العربي الذي كان يواجه الإستبداد العثماني الظلامي، وبدا وكأن هذا البديل جدير بالاحتذاء لإخراج الشعب العربي من النفق العثماني الطويل والمظلم. ولكن الزمن لم

يتأخر في تقديم الوجه الآخر لتلك الصورة المشرقة، وجه الغرب الإمبريالي والرأسمالي الصاعد، والذي يواصل مغامرته الكونية في السيطرة على العالم والإستحواذ على مصادر الثروة والأسواق. حيث عمل على تفتيت تماسك المجتمعات المغزوّة والهيمنة عليها وتكسير عناصر تلاحمها وتدمير شخصيتها الوطنية وربطها بعواصم «المتروبول» الغربي. ثم استكمل مشروعه الإلحاقي هذا بغزو ثقافي عمل بدوره على تهشيم الثقافات المغامرة وخلخلتها وهزيمتها ليحل محلها عناصر الثقافة الغربية والمشروع الغربي!

وكانت الصدمة كبيرة للمثقف العربي المشبع بتلك الصورة المشرقة والبرّاقة عن غرب حر وديمقراطي ويحمل لواء حرية الشعوب وتقدمها ويرفع شعاراً مثل «حرية، إخاء، مساواة»! فمن «بطرس البستاني» (١٨١٩ – ١٨٨٣) رائد العلمانية والتمدن الذي دعا إلى الإقتداء بأوربا، والذي نجد لديه أفكاراً أولى حول «سوريا» و«العرب»، إلى «أديب إسحق» (١٨٥٦ – ١٨٨٥) صاحب فكرة المجتمع السياسي والعداء لأوربا وفكّرة «الجماعة العربية» و«الجماعة الشرقية» التي يوحدها إحتقار أوربا لها ومقاومتها للنفوذ الأوربي المتصاعد، إلى «قاسم أمين» الذي رأى أن أوربا «هي في ذروة التقدم في ميدان العلوم، كما أنها في طريق الكمال الإجتماعي، وهي قد سبقتنا في كل شيء»، إلى «عبد الله النديم» الذي كانت أوربا في نظره العدو السياسي، إلا أنها كانت، مع ذلك، المعلم أيضاً!

وهكذا، على امتداد هذه الكوكبة الطويلة لن نصادف سوى الإضطراب والتشويش في العقل العربي تجاه الغرب، إنه يمثل من جهة رمز الحضارة والتقدم والديمقراطية، ومن جهة ثانية رمز الإستعمار وقوة البطش الرهيبة التي تقف في وجه الشعوب وتكبح نهضتها.

ومنذ تلك اللحظة والعقل العربي يتعامل مع الغرب وفق الثنائية

المضطربة: الخصم- الحلم! إنه الخصم الحضاري والعدو التاريخي والجغرافي (والذي يساعد الذاكرة الجمعية كثيراً على تسعير الحقد تجاهه) الذي يقف كالسد في وجه آمال شعوبنا وطموحاتها، ولكنه هو ذاته الذي يمتلك مفاتيح المشروع الذي صعد به إلى عرش العالم، والذي يحلم الكثيرون من أصحاب النوايا الطيبة عندنا باستعارة هذه المفاتيح منه لتأسيس مشروعهم المنافس!

لقد أدرك المثقف العربي، متأخراً قليلاً، أن مراهنته على ذلك الغرب كانت باطلة وكارثية، وأن على رأس عوامل إجهاض المشروع النهضوي العربي إنما يقف ذلك الغرب الرأسمالي المتربص إيّاه، منذ مشروع «محمد علي باشا» في أوائل القرن التاسع عشر وحتى اللحظة الراهنة وعلى امتداد القرن العشرين الذي شهد تصعيداً هائلاً في مسلسل المواجهة بين الغرب والعرب، بين نظامين ونسقين متضادين بالكامل، حيث ترجم هذا التصعيد من قبل الغرب بطشاً ودماراً وسحقاً لكل محاولة عربية للخروج من شرنقة التخلف والإنحطاط والهزيمة التاريخية! وبالمقابل، ترجم هذا التصعيد من قبل العربي على شكل حلقات عديدة من المواجهة والتحدي، استنزفت فيها أجيال كاملة حياتها ومصائرها في تلك المواجهة.

وهكذا كان علينا الإنتظار طويلاً قبل أن ينقشع الضباب الفكري وتتضح ملامح الصورة الحقيقية للغرب، وكي نستمع إلى صوت «أدونيس» الذي يقرّر: «الحقيقة أننا لم نعد نصدّق أوربا، لا سياسياً ولا تفكيراً، فالسوس لاينخر السياسة الأوربية فحسب، إنما ينخر كذلك الفكر الأوربي والروح الأوربية، والخلق الأوربي، إن أوربا لم تعد، بالنسبة إلينا، نحن هذه الشعوب «المتخلفة»، «الجاهلة»، «الفقيرة»، «أكثر من جيفة متمدنة».

* أفق المراجعة:

حتى اليوم لم تُنجز عملية تحليل شاملة لوضعية المجتمع العربي، ولم تتم غربلة قيمه ومفاهيمه لطرح «البائت» منها جانباً والحفاظ على الصحي والسليم، ولم يتم -مثلاً- تفكيك نظام القرابة المتجذر في أعماق الروح العربية، والعائد إلى جذور قبليّة وعشائرية، أي ماقبل مجتمعية، ولم تنل بنى هذه المجتمعات نصيبها من التمحيص، ولم نصل بعد إلى المرأة الجديدة (مثلما لم نصل إلى الرجل الجديد)، ولم تتم دراسة آلية الدولة و«ميكانيزماتها» والعلاقة بينها وبين المجتمع في البلاد العربية!.. وبالمقابل، لم تُنجز بعد قراءة عربية شاملة للمشروع الغربي والعناصر التي نهض عليها، ولم تتم غربلة هذه العناصر وفصل ماينتمي إلى خصوصية تلك المجتمعات، عن ماينسحب على المجتمعات الأخرى ويندرج في خانة الوضعية الإنسانية الشاملة.

إنه بدون نظرية عربية، أي بدون نموذج عربي خالص للرؤية، ينتمي حقيقة إلى حاجات هذه الأمة ويمتح من صبواتها وتوثباتها، لن يتاح لنا النهوض من كبوتنا أبداً.

واليوم، وفيما يستعد البشر في كل مكان لدخول بوابة القرن الحادي والعشرين الكبرى، فيما العقل العربي يقف، كما أسلفنا، عند لحظة القرن التاسع عشر، فإنه لعجز فاضح أن تجتر ثقافتنا ذاتها وأسئلتها المكرورة منذ زمن بعيد، وأن تعجز عن الخروج من النفق المظلم الطويل، وعن تحمل مسؤوليتها التاريخية في مواجهة «بلدوزر» الثقافة الإستهلاكية الغربية الكاسح، وفي تحصين الذات العربية من السقوط في الفخ النهائي.

وثمة مفصل زمني هام تتكشف أهميته اليوم، وهو مفصل الثمانينات، فمع بداية الثمانينات بدأ عصر انقشاع الضباب الكبير، وجاءت لحظة الوضوح أخيراً، إثر كل تلك الهزائم الكبيرة التي منيت بها أمتنا، وفيها، أي الثمانينات، بدأ

العقل العربي بالتخلي عن خطابيته كي يقف بهدوء، ووجهاً لوجه، أمام هزيمته. لقد انتهت الأوهام كلها، وعندها فقط بدأ العقل المهزوم يعاود طرح الأسئلة القديمة إياها، وهي كما أسلفنا، نبضة إيجابية بشرط أن يتم تجاوزها لاحقاً نحو شكل أرقى من العمل الفكري والثقافي، نحو طرح أسئلة جديدة والبدء بمحاولة الإجابة عنها.

فمنذ بداية الثمانينات بدأت الثقافة العربية تسجّل نبضات هامة على طريق الألف ميل الطويل والشاق نحو استعادة الذات الهاربة، ابتداء من تيار السينما الجديدة في أكثر من قطر عربي، ومروراً بالمحاولات الجادة الطموحة لإنجاز رواية تمتلك خصوصيتها العربية، وصولاً إلى المشاريع الفكرية التي عمل ويعمل عليها كوكبة من رموز الثقافة العربية، والتي تصب في النهاية في مجرى واحد: التقاط أواليات حركة هذه المجتمعات، والقيام بتحليل للظواهر المعرفية من منظور أكثر شمولية وعمقاً، في سبيل الوصول إلى لحظة الوضوح الحقيقية، أي فهم هذه المجتمعات ذاتها لذاتها وبذاتها، وعي الذات في النهاية. دون نماذج مسبقة وجاهزة ومنجزة، دون ضياعات جديدة، وخصوصاً دون تخبط وأوهام جديدة.

لقد فشل المثقف العربي، على امتداد الحقبة الآفلة، فشلاً ذريعاً في صياغة نموذج عربي للنهوض الشامل، وبعدها بدأ ذلك المثقف يعيش مأساته الوجودية، فقد أدى هذا الفشل إلى استقالة كاملة للعقل، وفي الوقت الذي كان يفترض فيه بالمثقف أن يكون رسول التنوير وحامل الوعي، تحول إلى مقلّد بائس لنماذج جاهزة في قارات أخرى، ولم يعد قادراً على الوصول إلى شرعيّته الثقافية إلا في إطار البحث عن تلك النماذج ومحاولة نقلها إلى واقعه. ودائماً كانت النتيجة تأتي مخيبة للآمال، ويوماً كان الفشل هو الذي ينتظر خلف الباب. وبالمقابل، كان الزمن يمضي سريعاً ولاهثاً دون أن ينتظر أحداً، ويسير

على توقيت المراكز المتقدمة على سطح الأرض، وكان الغرب يرسّخ دعائم سلطته على المجتمعات المهزومة، ومنها مجتمعنا العربي. فيعمل فيه تفكيكاً وتعرية وتحطيماً، حتى وصل هذا المجتمع إلى حالة من الضياع لم يسبق له أن مرّ بها. وهي الحال التي وصفها بدقة أحد المفكرين الغربيين المتعاطفين مع العرب وقضاياهم، وهو «جاك بيرك» الذي قال في أحدث حوار جرى معه:

«إن المجتمع العربي الإسلامي فقد قوة الإنسجام والتوازن والسيطرة على نفسه، فهو مهيمن عليه لا سياسياً فحسب، بل اجتماعياً وفكرياً وروحياً». وعندما نصل إلى مثل هذه النتيجة، وعندما يكون هذا هو حصادنا على امتداد هذا القرن، لايعود أمامنا مفرّ من استعادة الذات الضائعة، والمتماهية، والمشطورة، والغائبة في ضباب التاريخ والجغرافيا.

* * *

في هاوية الهزائم المتلاحقة باطراد، وفي ضجيج الأزمنة المعاصرة وانكسار الحلم النهضوي العربي وسعار الهجوم الأمريكي -الصهيوني- الأوربي الضاري على المنطقة، وفي ظل التكسّرات التي حطمت بنى المجتمع العربي وأعادته إلى قرونه الوسطى التي كان بالكاد قد خرج منها!.. ، في ظل هذه المعمعة الصاخبة ولدت الثقافة العربية المعاصرة وراحت تفتش عن هويتها وتبحث عن شرعيتها، وعلى امتداد الزمن راحت تتشكل ملامح هذه الثقافة بوضوح يبرز هواجسها وأرقها وأحلامها وتوثباتها و... إخفاقاتها أيضاً!

ولأن المجتمع كان يتفكك وينهار أمام الأبصار في دوي عظيم، ولأن الضربات الخارجية كانت تتلاحق باطراد، فإن الثقافة العربية سرعان ما احتلت موقعاً متقدماً للغاية في جبهة المواجهة والصراع، وباتت تمثل الحصن الأخير للدفاع عن الذات العربية في عالم ينهش هذه الذات المتوحدة من كل جهة، ويجعلها تعيش فيه اغتراباً حاداً وأرقاً متصلاً! ورغم جميع أشكال الغزو الثقافي

البراني، فإنه يمكن اعتبار الثقافة العنصر الوحيد الباقي ملكاً صافياً لمجتمع مهزوم.

من هنا فإننا لانجد سوى الثقافة، عنصراً يمكن المراهنة عليه لإخراج الأمة العربية من انهياراتها، وإنقاذها من هذا التشظي والتناثر والتفتت العجيب، الذي كان نتيجة منطقية للتشظي الأساسي الأول، وهو التشظي الجغرافي فهل تصمد ثقافتنا لهذه المراهنة؟ ذلك ماستجيب عليه الأزمنة المقبلة.

منشورات

